القراءات القرآنية بين نصوص الشرع وسموم الاستشراق

أ. خيرالدين سيبه
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب
والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد-
تلمسان-

ملخّص:

إنّ إنتاج المستشرقين وافر وضخم ، فقد طرقوا كلّ ناحية من نواحي ثقافتنا . وعالجوا كلّ أمر ذي بال وشأن في ديننا وحضارتنا ، فكانت القراءات القرآنية من بين اهتماماتهم إلا أنّهم تناولوها بالطعن والتشكيك . فجاء هذا البحث محاولة للكشف عن مقصدهم وفساد منهجهم والردّ على طعونهم وتوهّماته .

يعد موضوع القراءات القرآنية من بين الموضوعات الحساسة والخطيرة التي تناولها كثير من المستشرقين بالطعن والتشكيك محاولين هدم قاعدة الإسلام وأساسه وأصل الأصول في حياتنا إلى يوم القيامة ، فهم يريدون إثبات أنه لا يوجد متن واحد للقرآن ليطفئوا في صدور المسلمين أنوار التقديس لكتابهم بادعاء أن القراءات القرآنية ليست توقيفية ، وأن هناك مصاحف متعددة ، مختلفة ، يبرر اختلافها مقالتهم ودعواهم ببشرية القرآن ، ومن أشهر هؤلاء المستشرقين الذين قادهم التعصب إلى تفسير اختلاف القراءات بانعدام وجود نص ثابت للقرآن المستشرق "اجنـتس جولد تسيهر "(1) حيث ذكر في كتابه " مذاهب التفسير الإسلامي ": (ليس هناك نص موحد للقرآن ، ومن هنا نستطيع أن نلمح في صياغته المختلفة أولى مراحل التفسير ، والنص المتلقى بالقبول 'القراءات المشهورة' هو لذاته غير موحد في جزئيات ، يرجع إلى الكتابة التي تمت بعناية الخليفة الثالث عثمان ابن عفان).(2)

وفي موضع آخر خلص هذا المستشرق إلى القول : (ويمكننا أن نستخلص من التجارب في هذه المرحلة : أنه فيما يتعلق بإقامة النص المقدس في الإسلام الأول ، كانت تسود حرية مطردة إلى حد الحرية الفردية كأنما كان سواء لدى الناس لأن يروا النص على وجه لا يتفق بالكلية مع صورته الأصلية). (3)

أولا : فهم المستشرقين للنصوص الشرعية :

بُنِيَتْ طعون هؤلاء المستشرقين على أمور توهم بتبرير ما ذهبوا إليه من ذلك :

1 - أن القرآن نزل على سبعة أحرف للتيسير على الناس حيث أنهم من قبائل شتى مختلفة اللهجات ومسايرة الاختلاف في طريقة الأداء ونبرات الصوت معتمدين على أحاديث توحي بالاختيار في القراءة منها :

أ - حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة :عن أبيه أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – : {اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، فقال : على حرفين ، ثم

قال : استزده ، حتى بلغ سبعة أحرف كلها كاف شاف،كقولك : هلم ، وتعال، ما لم تختم آية رحمة بآية بعذاب ، أو آية عذاب بآية برحمة }.(4) وفي لفظ فقال : { كلها شاف كاف ما لم يختم آية عذاب بآية رحمة، أو آية رحمة بآية عذاب ، كقولك هلمّ ،وتعال، وأقبل ، وذهب ، وأسرع، وعجل }.(5)

وفي لفظ :{ اقرأ فنظرت إلى ميكائيل فسكتت فعلمت أنه قد انتهت العدة } .(6)

وفي لفظ النسائي : { أن جبريل وميكائيل عليهما السلام أتياني فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري فقال جبيرل : اقرأ القرآن على حرف فقال ميكائيل : استزده حتى بلغ سبعة أحرف}.(7)

قال ابن عبد البر :" إنما أراد بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها، إنها معان متفق مفهومها ، مختلف مسموعتا ، لا تكون في شيء منه معنى وضده ، ولا وجه يخالف وجها ينفيه أو يضاده كالرحمة التي هي خلاف العذاب ، وضده وما أشبه ذلك ". (8)

ب = **حديث أبي هريرة-رضي الله عنه-** : أنه قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم - : { إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرءوا ولا حرج ، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب ، ولا ذكر عذاب برحمة }.(9)

وفي لفظ : {أنزل القرآن على سبعة أحرف :غفورا رحيما ،عزيزا ، عليما حكيما ،وربما قال : سميعا بصيرا }.(10)

2- إن فهم المستشرقين لهذه الأحاديث بمنهجهم الملتوي وتأويلاتهم المتعسفة خلصوا إلى النتيجة التالية : وهو أن القراءات القرآنية توفيقية اجتهادية وليست توقيفية مرجحين ما ذهبوا إليه بمثل تلك الأحاديث السالفة الذكر ضاربين عرض الحائط بجملة من الأحاديث الصحيحة والتي تقطع بتوقيفية القراءات جاء في هذه الأحاديث الصحيحة جملة تكررت في أكثر من موضع هي : {... ... إن القرآن أنزلَ على سبعة أحرف فاقرءوا منه ما تيسر } .(11)

والمؤلم والمثير أن آراءهم استخفت بعض الدارسين المسلمين فروجوا لها ، بل إن بعضهم انتحلها اعتقادا منه بعظم قدرها ففي شرح كتاب " العرفان في فقه القرآن" لجمال الدين المقداد بن عبد الله السيوري المتوفى سنة 926هـ يقول الشارح - واسمه محمد باقر شريف زاده .- : (القراءات غير متواترة ، بل إنها اجتهادية من القراء ، أو نقل آحاد لم يثبت عن النبي – صلى الله عليه وسلم –). (12)

وهو قول مردود عليه ، فالمسلمون منعوا ما لم ينقل متواترا عن النبي-صلى الله عليه- وسلم- ، والنقل المتواتر هو عنصر أساسي في إثبات القرآن و أن الضابط الأساسي في القرآن والقراءات هو السماع وليس الاختيار كما يظنه هؤلاء وغيرهم من المفكرين ثم إن هذه القراءات كلها معجزة وتلك حقيقة لا نستغربها ، ما دامت كل قراءة قد أنزلت من عند الله أذن الله بها ، وبلغها الرسول -صلى الله عليه وسلم – وقرأ بها المسلمون منذ كان الوحي ، ويستحيل عقلا أن يكونوا قد أمضوا القرون وهم يقرءون غير ما أنزل الله – سبحانه-.

ثانيا :طعون المستشرقين وتوهماتهم :

1- توهم تطور القراءات القرآنية: زعم المستشرق 'آرثر جفري ' في مقدمته لكتاب "المصاحف لابن أبي داود"حيث يحاول هو الآخر تحريف تاريخ القرآن عن بعض مواضعه ، فهو يدعي – بغير بينة - أن القراءات تطورت مع الأيام ؟ ويذكر ستة أطوار في تاريخ تطور القراءات القرآن وهي :

1- طور المصاحف القديمة .

2- طور المصاحف العثمانية التي بعث بها إلى الأمصار.
3- طور حرية الاختيار في القراءات .
4- طور تسلط السبعة أو العشرة .
5- طور الاختيار في روايات العشرة .
6- طور تعميم قراءة حفص وهو طور النُّسخ المطبوعة .(13)

معنى هذا الكلام أن الله لم يُنَزِّل القراءات بالشكل المتواتر عند المسلمين ، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم - لم يقرأ هكذا بها، وأن صحابته - رضوان الله عليهم - لم يتلقّوْها ولم يقرءوا بها ، وقد احتمى جفري ببعض الروايات المنكرة والأحاديث الموضوعة مثلما فعل زميله جولد تسيهر.

ويُردُّ على جفري بأن القرآن وصل بالرواية المتواترة التي تعني أنه في كل طبقة من طبقاتها يتوافر جمع من الناس يُؤْمَنُ تواطؤهم على الكذب أو لا يُتَصَوَّر تواطؤهم عليه ،وأنه - بعكس المسلمين- لم يأخذ في الحكم على روايات القرآن بالسند الصحيح الممحص، والتواتر المتطمل الثابت ، وابتكر من لدنه ضلالات كثيرة واعتضد أحيانا بما لا يجوز-علميا- الاعتضاد به، ولم يدعن للقاعدة الإسلامية والموثقة والمتبعة ، قاعدة أن القراءة منذ نزول القرآن سُنَّة يأخذها الآخر عن الأول مشافهة فمًا لِفم،فالمسلمون اعتمدوا على التلقي الشفهي وعلى حفظ القلوب والصدور.

2-: توهم اعتماد خط الرسم في القراءة : زعم بعض المستشرقين أن اختلاف القراءات القرآنية ومنشأ تنوعها وتعددها إنما هو خاصية الخط العربي الذي كتبت به المصاحف العثمانية ، وهذه الخاصية هي : خلوه من إعجام الحروف ونقطها الذي يدل على ذواتها ، وخلوه من شكل الكلمات التي يدل على إعرابها ، يقول 'جولد تسيهر': (وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات - يقصد الاختلاف في القراءات- إلى خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة تبعا لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته ، وعدد تلك النقاط) إلى أن يقول : (وإذا فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط واختلاف الحركات ... كانا هما السبب في نشأة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوطا أصلا،ولم تتحرّ الدقة في نقطه أو تحريكه).(14)

والحق أن المستشرق جانبه الصواب في أمرين :

الأمر الأول: حينما اعتقد أن هذا الرسم هو الأساس الأول في نشأة القراءات من وجهة نظره .

الأمر الثاني : اتهامه المكشوف بأن النص القرآني لم تتحر الدقة في نقطه وحركاته.

لقد فاته أن القراءة هي الأصل ، وأن الرسم تابع لها وقد تختلف القراءة عن الرسم في بعض المواطن، ولا نبالغ إذا قلنا : إن هذه المغالطة من'جولد تسيهر' تجافي الواقع والتاريخ.

- أما مجافاتها للواقع ، فإنه لو كانت القراءات ترجع إلى ما ذهب إليه لراعتنا هذه الكثرة الهائلة من القراءات التي يحتملها الرسم ، والتي لم تُرْوَ عن النبي -صلى الله عليه وسلم - والقراءات التي بين أيدينا ، والتي صنَّفها العلماء ، ودققوا في عرضها ، وتثبتوا من سندها قراءات معروفة محدودة ، وكلها ترجع إلى الرواية والنقل ، لا إلى الكتابة والرسم .

-وأما مجافاتها للتاريخ ، فإن عثمان - رضي الله عنه - جرَّد المصحف من النقط ليحتمل رسم القراءات المروية من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى لا يحدِّده في قراءة بعينها، أو حرف بعينه ،(15) وأصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اتفقوا على صنيع عثمان في

المصحف وعلى رسمه ، وبذلك كانت هذه القراءات العديدة لا ترجع إلى الرسم وإنما مرجعها الأول إلى السند والرواية .

والذي يدل على بطلان ما ذهب إليه ذلك المستشرق أنه لو كان ما ذهب إليه صحيحا لصحت قراءة حماد الراوية (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها أباه)(16) بالباء الموحدة بدل الياء ، وهذه قراءة منكرة بالاتفاق فليست من السبع ولا من الأربع عشرة ، ولو كان مجرد الخط كافيا لاعتمدت .).(17)

والدليل الواضح الذي يهدم رأي المستشرق هو محاكمة ابن شنبوذ الذي ثار عليه العلماء من أجل رأيه الذي يقول فيه : (ما وافق خط المصحف العثماني صحت القراءة به متى صحَّ وجهه في العربية بقطع النظر عن الرواية).(17)

هذا وقد رجع ابن شنبوذ عن رأيه لـمَّا أُدّب وعُذّب واستُتيبَ.(18)

3-: عدم فهم المصطلحات :من العجب أن بعض المستشرقين وعلى رأسهم 'جولد تسيهر' عدّوا التصحيفات التي نقلت عن بعضهم قراءات ، وغاب عن أذهانهم أن القراءة مصدرها السماع من رسول الله –صلى الله عليه وسلم–وأن التصحيف له معنى محدد هو : أن يقرأ الشيء بخلاف ما أراد كاتبه وعلى غير ما اصطلح عليه في تسميته .(19) ،وأصله فيما زعموا أن قوما أخذوا العلم عن الصحف من غير أن لقوا فيه العلماء فكان يقع فيما يروونه التغيير ، فيقال عندها : قد صحفوا فيه أي رووه عن الصحف ، ومصدره التصحيف ، ومفعوله مُصَحَّفٌ .(20)

قال المعري : " أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب".(21)

وقد وقع بعض من نقل القرآن من المصحف – دون رواية ونقل – في التصحيف ، ومن ذلك ما ذكرناه عن حماد الرَّاوية ،وذكر حمزة الأصفهاني له عدة تصحيفات في عدة آيات.

وروي أن حمزة الزيات كان يتعلم القرآن من المصحف ، فقرأ يوما –وأبوه يسمع– {ألم ذلك الكتاب لا زيب فيه}(22)،فقال أبوه:'دع المصحف،وتلقن من أفواه الرجال'(23).

ومن أجل هذه التصحيفات التي تخل بنطق الآيات قالوا:" لا تأخذوا القرآن من مصحفيٍّ، ولا العلم من صحفي".(24) –وعندنا مقولة بالعامية تفيد المعنى نفسه).

خاتـمة :إن المستشرقين تعاملوا مع القرآن بمنهج غير سليم – ولا علمي – إذ لم يتوخوا الدقة ولا الروايات الصحيحة في نقولهم وهذا ما يظهر روح التعصب المذموم والحقد الدفين اتجاه هذه الأمة و مقدساتها ، ونسوا أن هذه الأمَّة شُرِّفت بحفظ ربها لكتابه وحفظهم لهذا الكتاب في القلوب والصدور ، ثم إن التبديل في القرآن مهما قلَّ ، ليس لمخلوق حتى ولو كان نبي الإسلام نفسه . وصدق الله حيث قال:**{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا إيت بقرآن غير هذا أو بدّله ، قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتـبع إلاّ ما يوحى إلـيَ إنّي أخـاف إن عصيت ربـّي عذاب يوم عظيم}**.(25)

الهوامش

(1) جولد تسيهر : مستشرق ألماني من أصلي يهودي.
(2) ينظر : مقدمة مذاهب التفسير الإسلامي لعبد الحليم النجار _ ص : 4.
(3) ينظر : مقدمة مذاهب التفسير الإسلامي لعبد الحليم النجار _ ص :10.
(4) أخرجه أحمد في مسنده : ج: 5 ص:41 ، وأخرجه أبو داود بمثله عن أبي رضي الله عنه تحت رقم :1477 ج: 2 ص: 76.
(5) أخرجه أحمد في مسنده : ج: 5 ص:41 .
(6) أخرجه النسائي من طريق أنس عن أبي بن كعب رضي الله عنهما.
(7) أخرجه النسائي ولم يذكر الزيادة المذكورة عند غيره ج:1 ص:153،150 ،154.
(8) ابن عبد البر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد _ ج:8 ،ص:284،283.
(9)رواه أبو داود تحت رقم 1475 ، ج:2 ص: 75
(10)رواه أبو داود تحت رقم 1477،ج :2 ص:76.
(11) أخرجه البخاري في غير موضع تحت رقم 2241،و 4608،و 4653 وغيره ، ونزول القرآن على سبعة أحرف ثابت عند البخاري ومسلم وغيرهم عن واحد وعشرين صحابيا .
(12) ينظر :محمد باقر شريف زاده: شرح العرفان في فقه القرآن _ج 1 ، ص 44 .
(13) .ينظر :مقدمة كتاب المصاحف لابن أبي داود ص : 8 و 9.
(14) ينظر : مقدمة التفسير الإسلامي لجولد تسيهر ص : 8 و 9 .نقلا عن : معجم القراءات 1 /59،والقرآن وأثره في الدراسات النحوية ص : 23.
(15) ينظر : ابن الجزري : النشر في القراءات العشر_ ص: 7.
(16) سورة التوبة الآية 114.
(17) ينظر : هامش مذاهب التفسير الإسلامي ص : 9 .
(18) ينظر : هامش مذاهب التفسير الإسلامي ص : 8 .
(19) ينظر : حمزة بن حسن الأصفهاني _ التنبيه على حدوث التصحيف ص :26.
(20) المصدر نفسه والصفحة
(21) ينظر: جلال الدين السيوطي :المزهر_ 353/2
(22) البقرة 1،2 والصواب:لا ريب فيه.
(23) ينظر : مقدمة معجم القراءات ص:63 .
(24) المرجع نفسه والصفحة.
(25) سورة يونس الآية 15.

المراجع :

1- الإتقان في علوم القرآن _ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي _ لبنان _ بيروت _ دار المعرفة _ د.ط _ د.ت .
2- البرهان في علوم القرآن _ بدرالدين محمد بن عبد الله الزركشي _ تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم _ لبنان _ بيروت _ دار المعرفة _ ط.2 _ د.ت .

3- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي _ محمد عبد الرحمن المباركفوري _ مراجعة وتصحيح : عبد الوهاب عبد اللطيف _ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع _ د.ط _ د.ت .
4- تاريخ توثيق نص القرآن _خالد عبد الرحمن العك _ سوريا _ دمشق _ دار الفكر _ د.ط _ د.ت .
5- التفسير والمفسرون - محمد حسين الذهبي - مصر - مطبعة السعادة _ د.ط _ 1396هـ _ 1976م.
6- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد _ أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي _ تحقيق : محمد الفلاح _ المغرب _ مطبعة فضالة المحمدية _ ط . 2 _ 1402هـ _ 1982م.
7-حصوننا مهددة من داخلها- محمد محمد حسين-بيروت- مؤسسة الرسالة- ط. 7- 1402ه-1982م.
8- سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية _ أنور الجندي _ الجزائر_ باتنة _ دار الشهاب_ د.ط_ 1987م.
9- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث _ مراجعة محمد محي الدين عبد الحميد _ سوريا _ دمشق _ دار الفكر_ د.ط _د.ت، وطبعة دار الكتاب العربي بيروت _لبنان _د.ط _د.ت.
10- شرح سنن النسائي _ جلال الدين السيوطي _ لبنان _ بيروت_ د.ط_ د.ت .
11- فتح الباري شرح صحيح البخاري _ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني _ مراجعة فؤاد عبد الباقي و محب الدين الخطيب _ لبنان _بيروت _ دار المعارف _ د.ط_ د.ت
12- القرآن كتب أحكمت آياته _ أحمد محمد جمال _ دون مطبعة _ د.ط _ د.ت.
13- القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية _ عبد العال سالم مكرم _ مصر _ القاهرة_ دار المعارف _ د.ط _ 1968م.
14- كتاب المصاحف _ أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني _ تحقيق : أنثري جفري _ مصر _ مكتبة الخانجي _ د.ظ_ د.ت.
15- مدخل إلى القرآن الكريم _ محمد عبد الله دراز _ الكويت _ دار القلم _ د.ط _ د.ت.
16- المستشرقون وترجمة القرآن الكريم _ محمد صالح البنداق _ بيروت _ دار الآفاق الجديدة _ ط.1 _ 1400هـ _ 1980م.
17- المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي _ عجيل جاسم النشمي _ الكويت _ المطبعة العصرية _ ط.1 _ 1404هـ_ 1984 م
18- المسند _الإمام أمد بن حنبل _ المكتب الإسلامي للطباعة والنشر _ د.ط _ د.ت .
19- معجم القراءات القرآنية (المقدمة) _ عبد العال سالم مكرم وغيره _ الكويت _ مطبوعات جامعة الكويت _ ط.1 _ 1402هـ _ 1982م.
20- مفتريات على الإسلام - أحمد محمد جمال-الجزائر-مكتبة رحاب-ط.5- *1407* هـ1987 م.
21- مقدمة مذاهب التفسير الإسلامي- عبد الحليم النجا- مصر-مطبعة السنة المحمدية - د.ط-د.ت.
22- مناهل العرفان في علوم القرآن _ محمد عبد العظيم الزرقاني _ مصر _ الحلبي مطبعة ثالثة _د.ط _ د.ت.

المجلات والدوريات:

1- مجلة الموافقات _ العدد الثالث _ ذو الحجة 1414هـ _ جوان 1994 م .
2- مجلة منار الإسلام *العدد السابع السنة الرابعة عشر*_ رجب 1409هـ _ فبراير 1989م .
3- مجلة منار الإسلام _العدد التاسع _ السنة التاسعة عشر_ رجب 1404هـ _ 1984م.